

مطابقة الكلام لمقتضى الحال
في القرآن الكريم
شبكة
الألوكة
www.alukah.net
قاسم عثمان جبق



مطابقة الكلام لمقتضى الحال في القرآن الكريم

الكاتب: قاسم عثمان جبق– ماجستير في اللغة العربية– باحث دكتوراه

تمهيد:

يُعرَّف علم المعاني بأنَّه عِلْمٌ يُعْرَف به أحوال اللَّفظ العربيِّ التي بها يُطابِق مُقْتَضَى الحال[1]، ولِمَكانة مُصْطَلَح المُطابَقة وأهمِّيته قُرِنَت البلاغة به، فالبلاغة هي: "مُطَابقة الكلام لمقتضى الحال مع فَصَاحته "[2].

ومُصْطلح الحال يُرادِف في أغلب استعمالاته عند علماء البلاغة مصطلح المَقام، وكلا المصُطلحين يُقْصَدُ بهما مجموعة الظُّروف والمُلابسات التي تلازم النَّشاط اللغويَّ.

وقد عُرِّفَت الحال بأنَّها: الأمر الدَّاعِي للمُتكلِّم إلى أن يضبط إيقاعَ كلامه وَفْقَ الوضع المَنْشُود، ومعنى ذلك أنَّ الأحوال أو المَقامات هي مجموعة المؤثِّرات (غير اللُّغويَّة) التي تُوَجِّه لغة الكلام البليغ؛ بحيث تترك فيه سِمَاتٍ تعبيريَّةً تُوَائِمُها وتتنوَّع بتنوُّعها، وهذه السِّمات هي ما سمَّاها السَّكَّاكيُّ وغيره في تعريف المعاني السَّابق بخواصِّ التَّراكيب، وهذه الخواصُّ هي ما يقتضي الحالَ ذكرُها، أو ما يُعْرَف بمقتضى الحال حَسْب اصطلاح هؤلاء البلاغيِّين[3].

---

[1] - جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني(ت٧٣٩ هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م، ١/ ٥٢.

[2] - المصدر السابق، ١/ ٤١.

[3] - يُنظر: د. حسن طبل، دراسات في علمي المعاني والبديع، دار الزهراء، د. ت، ص ١٢ – ١٤.





أوّلاً: مُطابقة الكلام لمُقْتَضَى الحال

تُعَدُّ فِكْرة مُطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو المقام، مِحْوَرَ البحث البلاغيِّ، فـ " هي الفكرة الجوهريَّة التي أثَّرَتْ تأثيراً كبيراً في توجيه البحث البلاغيِّ وتحديد كثير من مَساراته في شتَّى عصوره، لقد صارت هذه المطابقة هي غاية البحث في عِلْمَي المعاني والبيان "[١].

فهذا زكريَّا – عليه السَّلام– لَمَّا بُشِّرَ بغلام يقول: ﴿... **رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾[٢]؛ فالمقام والحال مَقَام مُتَرَدِّدٍ غيرِ مُتَيَقِّنٍ من إمكانيَّة الوِلادة، ويَسُوقُ زكريَّا – عليه السَّلام– لذلك دليلين مَنْطقيَّين يؤَكِّدان تردُّدَه، أمَّا الدَّليل الأوَّل فعَقْرُ زوجته، وأمَّا الدَّليل الثَّاني فكِبَرُهُ. وهذان الدَّليلان يُناسبان المقام الذي هو فيه.

ولعلَّ بِشْرَ بن الْمُعْتَمِر[٣] أوَّلُ مَنْ ذَكَرَ فكرة المُطابقة في صحيفته المشهورة فقد قال: " وإنَّما مَدار الشَّرف على الصَّواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يَجِب لكلِّ مَقامٍ مِن المقال"[٤]، ويمكننا أن نفهم من عَرْضِهِ فكرةَ المطابقة أنَّ عناصرَ ثلاثةً تنتظمها، هي: عنصر المعنى، وعنصر المُستقبِل أو المُخاطَب، وعنصر المَقام أو الحال الذي صار مَعِينَ التَّحليل[٥].

ويعلّق الدُّكتور شوقي ضيف– رحمه الله– على الفكرة السَّابقة فيقول: " يمضي بِشْرٌ فيُصوِّر كيف أنَّ المتكلِّم ينبغي أن يُوازن مُوازنةً تامَّةً بين مَعانيه وأَقْدَار الأحوال وأقدار المُستمعين، أو بعبارة أخرى ينبغي أن يُلائِمَ في دِقَّةٍ بين كلامه وبين معانيه وموضوعاته، كما يلائم بينه وبين المستمعين ومن يُوجِّه إليهم الحديث. وبِشْرٌ بذلك يَرْسم في دِقَّة الفكرة اليونانيَّة التي تدعو إلى المُلاءمة بين الكلام وأحوال السَّامعين ونفسيَّاتهم"[٦].

ويوضِّح أبو يَعْقُوب السَّكَّاكيُّ تلك العلاقة بين الكلام ومُقْتَضَى الحال القائمة على المطابقة فيقول: "لَمَّا تقرَّر أنَّ مَدَار حُسْن الكلام وقُبْحِهِ على انطباق تركيبه على مُقْتَضى الحال، وعلى لا

---

[١]- د. عبد الحميد هنداوي، جماليات سورة البقرة، مطبعة مصر، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٢، ١٣.
[٢]- سورة مريم، ١٩/٨.
[٣]- بشر بن المعتمر رأس من رؤوس المعتزلة، ت ٢١٠هـ.
[٤]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٦هـ)، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م، ١/ ١٣٥، ١٣٦.
[٥]- ينظر: إبراهيم الخولي، مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، دار البصائر، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٤١.
[٦]- د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط٩، د.ت، ص ٤٥.





انطباقه، وَجَبَ عليك أيُّها الحَرِيصُ على ازدياد فَضْلِكَ ...أن تَرْجِعَ إلى فِكْرِك الصَّائب، وذِهْنك الثَّاقب، وخاطرك اليَقْظَان، وانتباهك العجيب الشَّأْن، ناظراً بنور عَقْلك، وعَيْن بَصِيْرتك، في التَّصفُّح لمقتضيات الأحوال في إيراد الْمُسْنَدِ إليه على كَيْفيَّات مختلفة، وصور مُتَنافِيَة، حتَّى يَتَأَتَّى بُرُوزُه عندك لكلِّ مَنْزلة في مَعْرِضِها... فتعرفَ أيَّما حال يقتضي طَيَّ ذِكْرِه، وأيَّما حال يقتضي خِلافَ ذلك، وأيَّما حال يقتضي تعرُّفَه: مُضْمَرَاً، أو عَلَمَاً، أو مَوْصولاً، أو اسمَ إشارة، أو مُعَرَّفاً باللَّام، أو بالإضافة، وأيَّما حال يقتضي تعقيبَه بشيء من التَّوابع الخمسة، والفَصْل، وأيَّما حال يقتضي تَنَكُّرَه، وأيَّما حال يقتضي تقديمَه على المُسْنَد، وأيَّما حال يقتضي تأخيرَه عنه، وأيَّما حال يقتضي تخصيصَه أو إطلاقَه حالَ التَّنكير، وأيَّما حال يقتضي قَصْرَه على الخبر "[١].

ومن كلِّ ما سبق عرضُه وتبيانه تتَّضِح لنا قيمةُ الحال، فلا مناصَ من معرفة الحال أو المقام قبل دراسة أيِّ نصٍّ.

---

[١] - السَّكَّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر(ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص ١٧٥.



ثانياً: مُطابقة الكلام لحال المُخاطَب

إنَّ النَّاظر في كتب البلاغة يَسْترعي انتباهَه اهتمامُ علماء البلاغة بحال المخاطَب غالباً، ولا رَيْبَ في أنَّ العِناية بحال المتكلِّم أمرٌ مُهِمٌّ، ولذلك نرى جُلَّ الباحثين قد اهتمُّوا بمطابقة الكلام لحال المخاطب، الأمر الذي لم يَفْسَحْ لهم مجالاً لإعطاء مطابقة الكلام لحال المتكلِّم الاهتمامَ ذاتَه، على الرَّغْم من أنَّ عُنْصَرَي الكلام الرَّئيسين هما: المتكلِّم والمخاطَب.

ومن المعلوم أنَّ الكتب التي صُنِّفَتْ في علوم البلاغة، ولا سيمَّا علمِ المعاني، تبحث في المعاني التي تدور حول حال المخاطَب، وقد قَصَرَ علماء البلاغة القُدَامَى جُلَّ اهتمامهم في الموضوعات التي تبحث عن المعاني المتولِّدة مِن مُخاطَبة المتكلِّمِ السَّامعَ(المُتَلَقِّي)، وما هي الطُّرق التي من خلالها أوصل المعانيَ إلى المخاطب؟ وكيف وصلت هذه المعاني إليه؟ وكيف تلقَّى هو المعانيَ المقصودة؟

إنَّ فكرة تغليب حال المخاطَب على حال المتكلِّم نراها واضحةً في جميع كتب البلاغة القديمة، ولها حضور واضح في مُعْظم المُصنَّفات البلاغيَّة الحديثة التي ما فَتِئَت تَنْهَل من كتب علماء البلاغة المُتقدِّمين، وبالعودة إلى صحيفة بِشْرِ بن المعتمر السَّابقِ ذكرُها، فإنَّنا نستطيع، من خلال قراءتها بتَمَعُّن، أن نتبيَّنَ أنَّه ركَّز على مِحْوري الكلام المتكلِّم والمخاطَب، إذ يقول: "ينبغي للمتكلِّم أن يعرفَ أَقْدَارَ المعاني، ويوازنَ بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعلَ لكُلِّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلِّ حالة من ذلك مَقَاماً، حتى يَقْسِم أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويَقْسِمَ أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".[١]

ويرى علماء اللِّسانيَّات أنَّ الغاية من أداء الكلام في موضوع ما هي المخاطَب وَحْدَه، على الرَّغم من أنَّ التَّواصُل بين البشر يقوم على أربعة أركان، هي:

١ -المتكلِّم(المُرسِل)

٢ -المخاطَب(المُرسَل إليه)

٣ -السِّياق، أو المقام أو الحال، وهو جملة العلاقات التي تَكْتَنِفُ المتكلِّم والمخاطَب معاً.

٤ -الخطاب، وهو النَّص، أو التَّعبير الذي أنشأه المتكلِّم[٢].

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ١/ ١٣٨، ١٣٩.

٢- ينظر: إبراهيم الخولي، مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، ص٢١، ٢٢. ويوسف بن عبدالله بن محمد العليوي، رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين(دراسة بلاغية تحليلية)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، رسالة دكتوراه، الرياض، ١٤٢٩هـ، ص ١٣.



ولا شكَّ في أنَّ للركُنين المُرسِل والمُرسَل إليه الأولويَّةَ في مختلف حالات الخِطاب، فهما يتأثَّران بعدَّة عواملَ من مثل البيئة الاجتماعيَّة، ومُسْتَوى التَّعليم، وطرائق التَّفكير، والجنس، والعُمْر، وغير ذلك، وهذه العوامل، على اختلافها واختلاف درجة تأثيرها، هي التي تصنع حالَي المتكلِّم والمُخاطَب في أثناء التَّخاطُب. ولا يكون التَّأثُّر بحال المتكلِّم وَحْدَه، ولو كان مُنْشِئاً الكلامَ، كما لا يكون التَّأثُّر بحال المُخاطَب وحدَه، ولو كان هو المعنيَّ بالكلام، ولا يكون التأثُّر بالسِّيَاق الذي حصل فيه التَّخاطب، فالبليغ يُراعِي تلك الأحوالَ كلَّها.

ونستطيع أن نعرض لبعض الأدلَّة التي تؤكِّد فكرة تركيز علماء البلاغة في مُصنَّفاتهم على حال المُخاطَب دون حال المُتكلِّم، فبحث الخبر خيرُ دليل على ما نذهب إليه، فقد قسَّمه العلماء ثلاثة أَضْرُب، هي:

١- الخبر الابتدائيّ، ويكون فيه المُخاطَب خاليَ الذِّهْن من الحكم والتردُّدِ فيه، ولا يؤكَّد له، لأنَّ خلوَّ ذهنه يجعل الخبرَ يتأكَّد في نفسه من دون الاستعانة بأيَّة أداة من أدوات التَّوكيد.

٢- الخبر الطَّلبيّ: ويكون فيه المُخاطَب مُتَردِّداً في قَبُول الخبر، ويَحْسُنُ تقويتُهُ بمؤكِّد واحد بُغْيَةَ إزالة تردُّد المُخاطَب، وتحقيق مَضْمُون الخبر لديه، وقد سُمِّيَ بالطَّلبيِّ، لأنَّه مَسْبُوقٌ بطلب المُخاطَب بِلِسَان المَقَام أو بلسان الحال.

٣- الخبر الإنكاريّ: ويكون فيه المُخاطَب مُنْكِرَاً الحُكمَ، ولذلك يَجِبُ توكيدُه بمؤكِّد أو أكثر بِحَسْبِ درجة إنكار المخاطب قوَّةً أو ضعفاً، فكلَّما ازدادَ إنكاراً زِيْدَ في التَّوكيد.

وقد استشهد علماء البلاغة على الضَّربين الثَّاني والثَّالث من أَضْرُب الخبر بقوله تعالى: **﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾**[1].

فعندما وُوْجِهَ الرُّسلُ بتكذيب أصحاب القرية لهم قالوا: ﴿إنَّا إليكم مُرسَلُون﴾، وهو كلام خبريٌّ مؤكَّدَ بمؤكِّدين، هما: (إنَّ) والجملة الاسميَّة، فلمَّا بالغ أصحاب القرية في تكذيب الرُّسل، واشتدَّ إنكارُهم، أعاد الرُّسل كلامهم الخبريَّ مُضِيْفِيْنَ إليه مُؤكِّداتٍ أكثرَ إذ قالوا: ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، وهو كلامٌ خبريٌّ مؤكَّد بأربعة مؤكِّدات، هي: (إنَّ)، واللَّام المُزَحْلَقَة والجملة الاسميَّة،

---

[1]- سورة يس، ١٣- ١٦.



والتّكْرار.

ولله دَرُّ الزَّمخشريِّ الذي أضاف مؤكِّداً خامساً إذ قال: "فإن قُلْتَ: لِمَ قِيْلَ: إنَّا إليكم مرسلون أوّلاً، وإنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ آخِراً؟ قُلْتُ: لأنَّ الأوَّلَ ابتداءُ إِخْبارٍ، والثَّاني جوابٌ عن إنكارٍ. وقوله: رَبُّنا يَعْلَمُ جارٍ مُجْرَى القسم في التَّوكيد "[1].

ويعدُّ الكلام الخبريُّ الذى يأتي مُطابِقاً لحالٍ من الأحوال السَّابقة خبراً وارداً على مُقْتَضَى الظَّاهر، أي أنَّه يُراعَى فيه ظاهر حال المُخاطَب، وقد يأتي الخبر مُخالفاً لمُقْتَضَى الظَّاهر فيخرج على خلاف الظَّاهر. فقد يُنَزَّلُ غير السَّائل المُتردِّدِ في تصديق الخبر منزلةَ السَّائل، وذلك إذا قُدِّمَ إليه شيءٌ عن الخبر فَجَعَلَ ينظر ويسأل عن الخبر، إذ يُصْبِحُ ترقُّبُه في منزلة التَّردُّدِ، فيُؤَكَّد له الكلام على الرَّغم من خُلوِّ ذهنه.

ويستشهد علماء البلاغة على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾[2]، فقوله تعالى: إنَّهم مُغْرَقُون، يُوحِي في الظَّاهر إلى أنَّه لا يحتاج إلى توكيد، لأنَّ نُوحاً – عليه السَّلام– غيرُ سائل مُتَردِّدٍ فِيْمَا سَيَؤُول إليه حالُ قومِهِ، ولكن تَقَدُّمَ قولُه تعالى: ﴿**فأوحينا إليه أنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾[3] جعل المَقام مَقام تَرَدُّدٍ وتَلَهُّفٍ وتَرَقُّبٍ لمعرفة مصير أولئك الظَّالمين: أَيُحْكَمُ عليهم بالإغراق أم لا؟ ولذلك أُكِّد الكلام بـ (إنَّ) لِيُزيل ذاك التَّردُّد.

وقد يُنَزَّل غير المُنْكِرِ مَنْزِلَة المُنكِرِ، وذلك إذا ظهر عليه شيءٌ من أَمَارات الإنكار. وقد يُنزَّل المُنكِرِ منزلة غير المُنكِرِ، وذلك للإيحاء بأنَّ إنكارَه لا قيمةَ له، ولا اعتدادَ به.[4]

وممَّا سبق تبيَّن لنا أنَّ علماء البلاغة في تناولهم مُرَاعاة مُقْتَضَى الحال لم يَلْتَفِتوا إلَّا إلى حال المُخاطَب وحدَه، وأهملوا حال المُتكلِّم، وقد وقع بعضهم في افتراضات لحال المخاطب، وذلك لتخريج الأسلوب وَفْقَ تلك الأحوال المُفترَضَة، على الرَّغم من أنَّه من غير الضَّروريِّ أن يكون سببُ التَّوكيد مُرَاعاة حال المُخاطَب، وقد لا يكون هناك مخاطَب في الأصل، فقد يَرِد أسلوب التَّوكيد مُرَاعياً حالَ

---

[1]- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، ت(٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ٤/ ٨، ٩.

[2]- سورة المؤمنون، ٢٧.

[3]- سورة المؤمنون، /٢٧.

[4]- ينظر: السبكي، بهاء الدين، أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي، (٧٧٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ م، ١/ ١٢٣. والقزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ١/ ٧٢- ٧٥.





المتكلِّم أكثرَ من مُراعاته حال المُخاطَب، كما سيمرُّ معنا، وهو الأمر الذي غَفَل عنه أكثر علماء البلاغة.

لا نبعد عن الحقيقة إن قلنا: إنَّ حال المتكلِّم تمثِّل الأساسَ الأوَّل الذي تتحقَّق به المُطابقة، وقد استطاع بعض الباحثين المُحْدَثين أن يهتديَ إلى فكرة عدم اهتمام القُدامى من علماء البلاغة بحال المُتكلِّم[1]، لكنَّ بعض المُفَسِّرين للقرآن الكريم من البلاغيِّين فَطِنَ إلى ذلك، فَخَصَّ مُراعاة حال المُتكلِّم في كتبه، ويقف على رأس أولئك المُفسِّرين الإمامان الزَّمخشريُّ والإمام الطِّيْبِيُّ[2] .

[1]- ينظر: أمين الخولي، فن القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٠١.





ثالثاً: نماذج من مُطابقة الكلام لحال المتكلِّم في القرآن الكريم

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم رُوعِيَ فيها حال المُتكلِّم، وسنعرض بعض تلك الآيات،

الآية الكريمة الأولى:

قول الله تعالى على لسان مريم، عليها السَّلام، بعد أن بشَّرها جبريل، عليه السَّلام، بغلامٍ زَكِيٍّ:" ﴿**أنَّى يكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾[1]، وهي في قولها: "أنَّى يكون لي غلام" مُتعجِّبةٌ مُنْدَهِشَةٌ، وهي العَفِيْفَةُ الطَّاهرةُ غيرُ المتزوِّجة!، قال الطِّيْبِيُّ: "كأنَّها من فَرْطِ تعجبُّها ونهاية استبعادها نَبَذَتِ الوصف وَراءَها ظِهْرِيّاً، وأَتَتْ بالموصوف، وأخذت في تقرير نَفْيِهِ على أبلغ وجه، أي: ما أبعدَ وُجودَ هذا الموصوف مع هذه المَوانع، بَلْهَ الوصف!، وهو قريب من الأسلوب الحكيم، ولَمَّا كان الاهتمام بشأن النَّفْيِ في الثَّاني أتمّ آثَرَتْه، كأنَّ الإيذان بأنَّ انْتِفَاءَ الفُجُور لازمٌ لها، وبعيدٌ أن تتَّصف بِمَا يخالف العِفَّة؛ لأنَّها كانت مِن بيت العفَّة ومَعْدِن الطَّهارة، ألا ترى إلى قولهم: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً**﴾[2]؟ وبهذا ظَهَرَ أنَّ قولَ مَنْ قال: إنَّ هارون كان رجلاً صالحاً أخاً لها هو القول "[3].

واضحٌ أنَّ الطِّيبِيَّ، في تحليليه أسلوب الآية الكريمة، يبيِّن أنَّ مراعاة حال المُتكلِّم هو الغاية الأولى، فقد جعل تلك المُراعاة جزءاً من المَقام الذي يربط بينه وبين النَّظم القرآنيِّ ربطاً واضحاً.

الآية الكريمة الثَّانية:

قوله تعالى حكايةً على لسان امرأة عمران، بعد أن نَذَرت ما في بطنها مُحَرَّراً، مُظْهِرَةً حُزْنَها وحَسرَتَها: ﴿**فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ**﴾[4]

وقد علَّق الزَّمخشريُّ على قول امرأة عمران: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى**﴾فقال: " فإن قُلْتَ: فَلِمَ قالت: إنِّ وضعتُها أنثى؟ وما أَرَادَتْ إلى هذا القول؟ قُلْتُ: قالته تحسُّراً على ما رَأتْ مِن خَيْبَةِ رَجائِها وعَكْسِ تقديرها، فَتَحَزَّنَت إلى ربِّها؛ لأنَّها كانت ترجو وتقدِّرُ أن تَلِدَ ذكراً، ولذلك نذرتْهُ مُحَرَّراً للسَّدَانة. وَلِتَكَلُّمِها بذلك على وجه التَّحسُّر والتَّحَزُّن قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**﴾[5] تعظيماً

---

[1]- سورة مريم،٢٠.

[2]- سورة مريم، ٢٨.

[3]- الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، (ت ٧٤٣ هـ)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٣م، ٩/ ٥٩١.

[4]- سورة آل عمران، ٣٦.

[5]- سورة آل عمران، ٣٦.





لموضوعها وتَجْهيلاً لها بِقَدْرِ ما وُهِبَ لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشَّيء الذى وَضَعَتْ، وما عُلِّقَ به من عظائم الأمور وأن يجعله وَوَلَدَه آيةً للعالمين، وهى جاهلةٌ بذلك لا تعلم منه شيئاً؛ فلذلك تحسَّرَتْ"[1].

وقال ابن عَطِيَّة: "وقولُها: (ربِّ إنِّي وضعتُها أُنْثَى) لفظُ خبر في ضِمْنِهِ التَّحسُّر والتَّلَهُّف، وبيَّن الله ذلك بقوله: (والله أعلم بما وضعت) ...وإنَّما تلهَّفَتْ؛ لأنَّهم كانوا لا يحرِّرون الإناث لخدمة الكَنَائِس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رَجَتْ أن يكون ما في بطنها ذَكَراً، فلمَّا وَضَعَتْ أُنْثَى تلهَّفَتْ على فَوْتِ الأمل، وأَفْزَعَها أنْ نَذَرَتْ ما لا يجوز نَذْرُهُ "[2].

وقال مُحمَّد الطَّاهر بن عاشور- رحمه الله- مُشيراً إلى بُعْدٍ نفسِّيٍ اكْتَنَفَ امرأةَ عمران: "وتأكيد الخبر بـ(إنَّ) مُرَاعاةٌ لأصل الخبريَّة تحقيقاً لكون المولود أُنْثَى، إذ هو بوقوعه على خِلاف المُترَقَّب لها كان بحيثُ تَشُكُّ في كونه أنثى، وتخاطب نفسها بنفسها بطريق التَّأكيد، فلذا أكَّدتْهُ، ثمَّ لَمَّا اسْتَعْمَلَتْ هَذَا الْخَبَرَ فِي الْإِنْشَاءِ اسْتَعْمَلَتْهُ بِرُمَّتِهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْمُرَكَّبِ الْمُرْسَلِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُرَكَّبَ يَكُونُ مَجَازًا بِمَجْمُوعِهِ لا بأجزائِهِ وَمُفْرَدَاتِهِ، وهذا التَّركيب، بما اشْتَمَلَ عليه من الخُصُوصيَّات، يَحْكِي ما تضمَّنَه كلامُها في لغتها من المعاني: وهى الرَّوْعَة والكَرَاهِيَة لولادتها أُنثى، ومحاولتها مُغَالطة نفسِها في الإذعان لهذا الحُكْم ثمَّ تحقيقها ذلك لنفسها وتَطْمِيْنُها بها، ثُمَّ التَّنقُّل إلى التَّحسُّر على ذلك، فلذلك أَوْدَعَ حكايةَ كلامها خُصُوصيَّاتٍ من العربيَّة تُعَبِّر عن مَعَانٍ كثيرةٍ قَصَدَتْها في مُنَاجَاتها بِلُغَتِها "[3].

الآية الكريمة الثَّالثة:

قوله تعالى حكاية على لسان زكريَّا، عليه السَّلام: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾[4].

فالغرض البلاغيُّ للخبر في قول زكريَّا إنَّما هو الاسترحام من الله سبحانه وتعالى بدليل أنَّه قد تقدَّم في السِّنِّ، وقد ظهرت أَمَارات ذلك التَّقدُّم(الشَّيْب)، ولا ولد له من بعده يَرِثُه العِلْمَ والنُّبوَّة، وهذا يعني أنَّ الكلام الخبريَّ هنا قد جاء مراعاةً لحال المُتكلِّم لا حال المُخاطَب، ذلك أنَّه لم يُخاطِب مَنْ يَجْهَلُ حالَه.

قال الزَّمخشريُّ: " وإنَّما ذَكَرَ العَظْمَ؛ لأنَّه عَمُود البَدَن، وبه قَوَامُه، وهو أصل بنائه، فإذا وَهَنَ تَدَاعَى وتَسَاقَطَتْ قُوَّتُه، ولأنَّه أشدُّ ما فيه وأَصْلَبُهُ، فإذا وَهَنَ كان ما وراءَه أَوْهَنَ، وَوَحَّدَهُ؛ لأنَّ الواحدَ هو الدَّال على معنى الجِنْسِيَّة، وقَصْدُهُ إلى هذا الجِنْس الذى هو العَمُود والقَوام وأشدُّ ما تركَّبَ منه الجسد قد أصابَه الوَهَن،

---

[1]- الزمخشري، الكشاف، ٣٥٦/١.

[2]- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ،١/ ٤٢٤، ٤٢٥.

[3]- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣.

[4]- سورة مريم، ٤.





ولو جُمِعَ لكان قَصْداً إلى معنىً آخرَ، وهو أنَّه لم يَهُنْ منه بعضُ عظامه، ولكن كلُّها "[1].

وعلَّق الطِّيبيُّ على كلام الزَّمخشريِّ فقال: " المقصود من الإيراد في هذا المقام إظهار الضَّعْفِ في البدن وإبداءُ تساقطِ القِوى، ألَا تَرى إلى أداة الحصْر في قوله: (وإنَّما ذكَرَ العَظْمَ؛ لأنَّه عمود البَدَن، وبه قِوامُه)"[2].

وقد وضَّحَ محمد الطَّاهر بن عاشور الغَرَض البلاغيَّ من هذا الخبر فقال: " والخَبَرَانِ من قوله: ﴿**وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ مُسْتَعْملانِ مَجَازاً في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأنَّ المُخْبَرَ -بفتح الباء- عالِمٌ بما تضمَّنَه الخَبَران "[3].

والغرض البلاغيُّ من الكلام الخبريِّ قول زكريّا: ﴿**وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾ هو التَّوسُّل برحمة الله السَّابقة المُتَجَدِّدة التي لا تنقطع عن عباده الصَّالحين.

قال محمود شُكْرِي الألوسيُّ: "وهذا توسُّل منه- عليه السَّلام- بما سَلَفَ منه تَعَالى مِن الاستجابة عند كلِّ دعوة إِثْرَ تمهيدٍ ما يَسْتَدْعِي الرَّحمة من كِبَرِ السِّنِّ وضَعْفِ الحال؛ فإنَّه تعالى بعد ما عوَّدَ عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يُخَيِّبُه أبداً لا سيَّما عند اضطراره وشدَّة افتقاره، وفي هذا التَّوسُّل من الإشارة إلى عِظَمِ كَرَمِ الله عزَّ وجلَّ ما فيه "[4].

الآية الكريمة الرَّابعة

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)**﴾[5]

استطاع الإمام الطِّيبيُّ أن يَقِفَ في سورة الفاتحة على السِّرَّ البلاغيَّ في الالتفات من الغائب إلى المخاطب مُراعاةً لحال المتكلِّم وأن يربط بين نَظْمِ السُّورة والمقام الواردة فيه فقال ناقلاً كلام ابن جِنِّي: " قال ابن جِنِّي: (إنَّما تَرَك الغَيْبَةَ إلى الخطاب؛ لأنَّ الحمد دون العبادة، ألَا تَرَاكَ تَحْمَدُ نَظِيرَك ولا تعبدُه، ولمَّا صار إلى العبادة التي هي أَقْصَى أَمَدِ الطَّاعة قال: ﴿إيَّاك نعبدُ﴾ إصراحًا بها، وتَقَرُّباً منه)[6].

---

[1]- الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٤.

[2]- الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب،٩/ ٥٦٤.

[3]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦٤/١٦.

[4]- الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ، ٨/ ٣٨١.

[5]- سورة الفاتحة، ١- ٥.

[6]- ينظر قول ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ) في: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح شلبي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د. ط، ١٩٩٤م، ١/ ١٤٥، ١٤٦.





ومن هنا ندرك أنَّ للالتفات في هذه الآيات من مَقَام الغَيْبَة إلى مقام الخِطاب سِرَّاً هو مُراعاة حال المتكلِّم، إذ يتناسب هذا الالتفات مع حالة العبد التي تجدَّدت، وهو بين يدي بارئه وسيِّده، يستشعر ربوبيَّتَه ونِعْمَةَ رحمته السَّابغة وعَظَمَةَ مُلْكِهِ في الدُّنيا والآخرة، وهذا الشُّعور قد ولَّدَ في نفس العبد رغبةً في الإقرار بخالص عبوديَّتِه لله وافتقاره لِمَوْلاه في كلِّ تقلبُّاته، فلا مُعينَ ولا سَنَدَ حقيقيٌّ إلَّا الله وحده، جَلَّ في عُلاه.

وقد بيَّن الزَّمخشريُّ أنَّ وراء ذلك الالتفات مُراعاةَ حال المتكلِّم فقال: "ومِمَّا اختصَّ به هذا الموضع أنَّه لَمَّا ذَكَرَ الحقيقة بالحَمْد، وأُجْرِيَ عليه تلك الصِّفات العِظام، تَعَلَّق العِلْمُ بمعلومٍ عظيمِ الشَّأن، حَقِيْقٍ بالثَّناء، وغاية الخُضُوع، والاستعانة في المُهِمَّات فَخُوطِبَ ذلك المعلومُ المُتَمَيِّز بتلك الصِّفات، فقيل: إيَّاكَ يا مَنْ هذه صفاتُه نخصُّ بالعبادة والاستعانة، لا نَعْبُدُ غَيْرَكَ، ولا نَستعينُه، لِيكونَ الخِطاب أَدَلَّ على أنَّ العِبادة له لذلك التَّميُّز الذى لا تَحِقُّ العبادةُ إلَّا به "(٧).

ومن خلال عرضنا السَّابق يظهر جليَّاً أنَّ بعض المفسِّرين للقرآن الكريم مِنْ مِثْلِ الزَّمخشريِّ

٧- الزمخشري، الكشاف ١٤/١.



والطِّيْبِيّ والآلوسيّ ومحمد الطَّاهر بن عاشور قد أَوْلَوْا مُراعاة مُقْتَضَى حال المتكلِّم عناية واضحة من خلال تطبيقاتهم البلاغيَّة على آيات من القرآن الكريم، وذلك من خلال مُصنَّفاتهم التي تركوها لنا.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. إبراهيم الخولي، مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، دار البصائر، ط١، ٢٠٠٧م.

٢. ابن جني(ت٣٩٢هـ) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تح علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح شلبي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د. ط، ١٩٩٤م.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

٤. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ.

٥. الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٦. أمين الخولي، فن القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.

٧. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٣٥٦هـ)، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م.

٨. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني(ت٧٣٩ هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تح د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.

٩. د. حسن طبل، دراسات في علمي المعاني والبديع، دار الزهراء، د.ت.

١٠. د. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط٩، د.ت.

١١. د. عبد الحميد هنداوي، جماليات سورة البقرة، مطبعة مصر، ط١، ٢٠٠١م.



١٢.الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله(ت٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٣. السبكي، بهاء الدين، أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧٣هـ)، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح الدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣ م.

١٤. السَّكَّاكى، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر(ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

١٥. الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي(ت ٧٤٣ هـ)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج القسم الدراسي: د. جميل بني عطا المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ٢٠١٣م.

١٦. يوسف بن عبدالله بن محمد العليوي، رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين(دراسة بلاغية تحليلية)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، رسالة دكتوراه، الرياض، ١٤٢٩هـ.



هذا الكتاب منشور في

